الأولين لتوضيح هذا المعنى نفصّل في آيتين ذكرتا الأساطير من مجموع تسع آيات – يمكن مراجعتها – وهما الآية ٢٥ من سورة الأنعام والآية ٨٣ من سورة المؤمنون.

أولا : سورة الأنعام:

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥)

تتحدث آيات سورة الأنعام عن التوحيد لله عبر دلائل آياته في خلقه، والرسول يذكّرهم بالحقيقة كاملة، حقيقة الوجود وغايته ومنتهاه بدلائل سمعية عقلية وبشواهد وآثار يرونها حولهم، أما "الذين كفروا" فقد أغلقوا على أنفسهم منافذ التفكير، على الرغم من استعراض السورة لسلسلة من الأدلّة العقلية في موضوعات مختلفة تؤدي حتماً عند المتأمّل العاقل للإيمان بالله وتوحيده وفق منطق البرهان العقلي، وقد كان أولئك يستمعون إلى تلك الأدلة إلا أنّهم لم يتمكّنوا أن يفقهوا شيئا مما يسمعونه بسبب حجب يعانون منها، تلك الحجب أغلقت عليهم أهم منفذ من منافذ العلم وهو الاستماع المتجرّد، أمّا المنفذ الآخر لإدراك الحقائق وهو "الرؤية" أي معاينة الآيات والدلائل الخارجية التي تفسح المجال أمام العقل للتفكير والمراجعة فهو الآخر واقع تحت شراك تلك الحجب.هذه الآية الكريمة تعبّر عن ردة الفعل تجاه ما يسمعون من آيات القرآن الواصفة لما يرون من خلق الله سبحانه بأنها أساطير الأولين. بمعنى أن أساطير الأولين ليست إلا مقولات واصفة للمخلوقات وعملية الخلق ودلائل توحيد الخالق كما هي دعوة الرسول (ص) وإنه (ص) لم يأت بجديد.

ثانيا: سورة المؤمنون:

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣)

المشركون اعترفوا بأنّ التوحيد والبعث والوعود الإلهية موجودة في أساطير الأوّلين، ولكنّهم لا يأبهون بها ويعدّونها من قبيل الخرافات، والآيات بإعراضها عن الردّ عليهم تقرّهم على مقالتهم لأنّها ما خالفت وجه الحقيقة، فالتوحيد ونبذ الشرك مفاهيم موجودة في الأساطير، والأحاديث عن عوالم سفلية وجنّة علوية ويوم حساب موجود أيضا في الأساطير، والآيات هنا تنقل مقالتهم، وتستهزئ بعقولهم التي حكمت على القضايا العقلية بالبطلان وهي مذكورة عند الأوّلين، وتذكّرهم بأن ثمّة أوّلين معاندين أيضاً من قبلهم قالوا مثل قولهم، والأوّلون لفظ لا يرتبط بمرحلة معينة، فكل من سبق عصر المتكلّم هو من الأوّلين، فهم لم يختلفوا عمّن سبقهم في شيء، فتلك هي سمة البشر على مرّ الأزمان، فإنكارهم وإعراضهم ليس بجديد، فقد فعله من قبلهم، ومقولتهم تشبه مقولة الذين سبقوهم في ردّهم على أنبيائهم، ووعد الله قائم لا تمنعه اعتراضات المعترضين.

كيف نقرأ الأساطير؟

لقراءة الأساطير لابدّ من مراعاة عدة أمور هي:

اعتبار الحضارات القديمة في المنطقة العربية على امتدادها التاريخي الذي يصل غربا إلى شمال أفريقيا وشمالا إلى سوريا وجنوب أوروبا وشرقا إلى العراق والخليج العربي وفارس ثمّ جنوبا إلى اليمن وعمان، لا بدّ من النظر إليها على أنّها منطقة واحدة ذات خصائص مشتركة ارتبطت في أصولها العرقية واللغوية بجذور متشابكة ممتدّة في عصور التاريخ القديم، هذا الأصل يمكن أن يساعد بدرجة كبيرة على سدّ الثغرات التي تطرأ في حالة دراسة كلّ حضارة على حدة، ومن ثمّ اعتبار أساطيرها واحدة من حيث المؤدى والمضمون.

إنّ "كتابة"أي لغة لا تعادل اللغة ذاتها، لأنّ اللغة هي دائما بناء حي أعلى كثيرا من إمكانية حصرهكتابيا، إذ اللغة هي الكلام بإضافة كلّ ما يصاحبه من حركات جسدية وتوريات وتلميحات ومعاني باطنة مشتركة بين المتحدث والمتلقي بالإضافة إلى الانفعالات والتداعيات التي يستثيرها قول معين بطريقة معينة لدى أبناء اللغة الواحدة، فمن الطبيعي أن تقفَ الكتابة عاجزةً عن أداء كلّ ذلك حتى بين من يتخاطبون بلغة واحدة مشتركة. والأساطير مكتوبة بلغة بدائية غير قادرة على احتواء القسم الأكبر من التعابير اللغوية، ولكن من الناحية الأخرى تحتوي على الجانب الأهم من المعارف وقد تم استخدام الكثير من الإمكانيّات اللغوية من القصّ والتمثيل لتثبيت الأفكار وسريانها عبر الأمكنة والأزمان المختلفة. فأمام هذا التراث جاء المترجمون من لغات بعيدة عن المنطقة، وباستخدام لغات أخرى قديمة كالهيروغليفية أو أحدى اللهجات الفارسية القديمة لفك الأساطير. فمن ناحية لغاتهم لا تحتوي على بعض حروف لغات المنطقة كالحاء والصاد والضاد والطاء والظاء والعين والقاف عدا غياب الحركات في اللغات المكتوبة عدا الجهل المطلق بفوارق اللهجات في اللغة الواحدة.فيمكن للقارئ تخيّل أي كلمة عربية ولفظها كما يلفظها الأوروبيون وا ٍعادة كتابتها بالإملاء الجديد.

ب–سمات التفكير الاسطوري والتفكير المنظم

مما لاشك فيه أن العلاقة بين الأسطورة و الفلسفة متداخلة و هي علاقة متشابكة لا يستطيع أحد أن ينكرها وأن يغفل أهمية تلك العلاقة. بعض الفلاسفة يروا أن الأسطورة هي المقدمة الطبيعية

و الأساسية لظهور التفكير الفلسفي. بمعني أن التفكير الفلسفي انبثق عن التفكير الأسطوري. و هذا واضح و جلي في بلاد اليونان. حيث سبق التفكير الأسطوري ظهور التفكير الفلسفي. فالتفكير الأسطوري كان يدور حول الآلهة و صراعاتها علي جبل الاولمب. و بعض الفلاسفة و المفكرين يرون أن الأسطورة عامل مشترك في الفكر الإنساني، لان بداية هذا الفكر كانت مثل الطفل الرضيع الذي يحبو أولا ثم يمشي علي قدميه ثم يشب عن الطوق حتى و صل هذا الفكر إلي ما نحن عليه الآن. و يجب أن نشير إلي أن الأسطورة و الفلسفة علي اتصال دائم و مباشر ، و لقد تطورت الأسطورة علي مر التاريخ و مع ذلك ظلت تحظي باهتمام الفكر البشري بداية من عصر الصيد و هي المرحلة التي سبقت العصر الحجري حيث تبدو الصلة و العلاقة بين الأسطورة و الفلسفة غامضة لان عقيدة الإنسان في تلك المرحلة انصبت علي الاهتمام بموارد حياته و في مقدماتها الحيوانات. و في مقدماتها الحيوانات، وفي العصر الحجري ظهرت التمائم التي يعتقد أنها تجلب الرزق. و إذا أردنا أن نعرف الأسطورة لغة فهي الأحاديث المنمقة أو المزخرفة التي لانتظام لها، فهي مشتقة من السطر من الشئ بمعني الصف من الكتاب و الشجر و النخل و نحوها. كما أنها في اليونانية مأخوذة من (Mutho) وتعني حكاية تقليدية عن الآلهة و الأبطال. هذه الحكاية تتحدث عن الآلهة و أعمالهم و نشأتهم ، وهي من اجل هذا المعني اتخذت قديم ًا من اجل تفسير كل الظواهر الغير مألوفة. و الأسطورة تحكي قصصا مقدسة تبرز ظواهر الطبيعة مثلا أو نشوء الكون أو خلق الإنسان و غير ذلك من الموضوعات التي تتناولها الفلسفة. إذا موضوعات الأسطورة تعتبر أيضا مادة خصبة للفلسفة لكن التناول مختلف ، الأسطورة تعتمد علي الخيال و الأشياء الغير مألوفة ، و الفلسفة تعتمد علي العقل و المنطق في تناول الموضوعات. و لا يستطيع احد أن ينكر هذا التداخل بين الأسطورة و الفلسفة. و من أهم الأساطير في بلاد الرافدين أسطورة جلجامش التي تحكي عن موضوع الخلود ، كذلك قصة الطوفان التي جاء ذكرها في القران و التوراة. و للأسطورة أنواع متعددة منها الأسطورة التاريخية ، و الأسطورة الدينية و الأسطورة التفسيرية. و إذا كانت الأسطورة تصدر عن حالة عاطفية تتخطي العقل لتنتج صورا ذهنية مباشرة تعكس تلك العلاقة بين الذات الموضوع ، فان الفلسفة تنظر للموضوعات برؤية عقلية. و يجب أن نشير إلي حقيقة هامة و هي أن ظهور الفلسفة في بلاد اليونان إعلانا عن إحداث قطيعة في التفكير الأسطوري و الانتقال من الخطاب الشفوي الأسطوري إلي الخطاب الفلسفي الذي يعتمد علي الاستدلال العقلي.ورغم هذا إلا أن الأسطورة و ظيفتها في تاريخ الفكر البشري هذه الوظيفة لا نستطيع أن نغفلها أو نغض الطرف عنها ، وفي مقدمة هذه الوظائف تفسير الظواهر الطبيعية و الاجتماعية و الثقافية في مجتمع ما خاصة المجتمعات البدائية. و للتفكير الأسطوري سمات تختلف تماما عن التفكير الفلسفي. التفكير الأسطوري له خاصية القبول المطلق لفكره معينة و بالتالي الرفض المطلق للأفكار الاخري، و

هذا عكس التفكير الفلسفي الذي يقبل الرأي الآخر و يغترف به. كذلك التفكير الأسطوري لاعقلاني أما التفكير الفلسفي فهو عقلاني. و خلاصة القول أن الأسطورة و الفلسفة بينهما و وشائج قربى و يعتبر بعض المفكرين أن الفلسفة قد اكتشفت في الأسطورة البناء الوجودي والصورة الأصلية التي تعبر عن ارتباط الإنسان بالواقع و الحياة . و لقد اعتبر فلاسفة اليونان أن الأسطورة هي الحقيقة في صورتها الرمزية و علي الفلاسفة أن يرفعوا الحجاب عن هذه الحقيقة الرمزية ، فكان الأسطورة تخفي الحقيقة و تأتي الفلسفة لإظهارها.